

الإستراتيجية التوجيهية في خطاب الرسول ﷺ

-مقاربة تداولية في الآيات القرآنية المبدوءة بـ "قل"

The guiding strategy in the prophet's speech – A pragmatic approach in the Qur'anic verses beginning with the word: "Say".

Les racines de la linguistique pragmatique dans le patrimoine exégétique

أ. شفيقة طوبال

جامعة محمد الصديق بن يحيى-جيجل (الجزائر)

رقم الهاتف: 0791749410

talibat3ilm972@gmail.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال:
2019-02-28	2018-12-20	2018-12-15

الملخص:

يكشف هذا المقال عن الإستراتيجية التوجيهية في خطاب الرسول ﷺ الموجه إلى أهل الكتاب وكفار قريش والمؤمنين والمؤمنات، وذلك في الآيات القرآنية المبدوءة بـ "قل". وقد توسلت بالمقاربة التداولية كمنهج لساني من خلال تحليل الأفعال الكلامية، وما تنطوي عليه من قوى إنجازية مباشرة، وقوى إنجازية غير مباشرة. الكلمات المفتاحية: الإستراتيجية التوجيهية- أفعال الكلام- شروط الملاءمة.

Abstract :

This article reveals the Prophet's (Peace be upon Him) guiding strategy in his address to the People of the Book, that's the believers and the disbelievers of Quraish tribesmen. Throughout the Quranic verses which begin with the word "Say". The deliberative approach is used as a linguistic method to analyse the forces of the speech acts, their direct power, and their indirect power of achievement.

Keywords: Guidance Strategy – Speech acts - Terms of convenience.

*مستخلص باللغة الانجليزية:

The guiding strategy is the sum of the plans or methods followed by the speaker in order to communicate with his addressees, without taking account of the communication relations.

This article deals with the various means, which the noble prophet Peace be upon him has used to guide both the disbelievers of Quraysh, the people of the book and the believers in the Qur'anic Suras and verses that begin with the word "Say".

At the beginning, I tempted a definition of the guiding strategy and the reasons behind its use, as well as the preoccupation and interest of ancient Arabs in the grammatical, rhetorical and jurisprudential studies. This topic, in contemporary western studies, is rather confined to discipline and pronunciation. Later on, I tried to show the most important linguistic means in the guiding strategy, namely: command, prohibition, questioning and warning.

In the body of the study, I showed how the guiding strategy is manifested in the Prophet's speech to the people of the book and Quraysh tribesmen, through the theory of speech acts, where questioning was a basic pillar to accomplish denial, rebuke and exclamation. While command and prohibition were the bases of his speech to male and female believers in order to attain incitement and advice. And accordingly, the conditions of appropriateness were attained in the prophet's address to male and female believers; yet they were not realized in his speech to Quraysh disbelievers.

This article concludes with prominent findings. The most important of them is perhaps the strategy of speech, which varied according to the nature of the people, it is addressed to.

Finally, here's the list of the most important results that were monitored at the end of this research:

- ✓ The means of the guiding strategy in the speech of the Prophet ^{Peace be upon him} were not the same with all the interlocutors; questioning was the main pillar in guiding the people of the book, and the disbelievers of Quraysh, where the powers of achievement varied from denial and report to rebuke and exclamation and even sometimes to ridicule.
- ✓ While the discourse addressed to the male and female believers was mainly based on command and prohibition, for the purpose of advice and guidance, as well as the teaching of Laws of Sharia.
- ✓ Accordingly, the conditions of appropriateness in the speech acts directed at the male and female believers were attained, while those very conditions were not fulfilled in his speech addressed to Quraysh disbelievers.
- ✓ In conclusion, the Prophet's guiding strategy has achieved its purposes and goals, because the Prophet Peace be upon him was able to change the individuals' behaviour to change the reality of nations.

Keywords: Guidance Strategy – Speech acts - Terms of appropriateness or suitability.

مقدمة:

لقد انطلقت الدراسات التداولية* في تصنيف أنواع الاستراتيجيات التخاطبية بالارتكاز على ثلاثة معايير هي: المعيار الاجتماعي، ومعيار شكل الخطاب، ومعيار هدف الخطاب. وقد تفرع عن المعيار الاجتماعي إستراتيجيتين اثنتين هما: الإستراتيجية التضامنية، والإستراتيجية التوجيهية، وذلك لاعتماد هذا المعيار على العلاقة بين طرفي الخطاب. لكن الفرق الواضح بين الإستراتيجيتين من خلال ما وقفنا عليه أنّ الأولى تتبني على قواعد التعامل، بينما تتبني الأخرى على قواعد التواصل.

وهذا الاهتمام بقواعد التبليغ والتواصل في الإستراتيجية التوجيهية ناتج عن الاهتمام بمضمون الخطاب من "توجيهات ونصائح وأوامر ونواه يفترض أنها لصالح المخاطب أو المرسل إليه، ولا يعد التوجيه هنا فعلاً لغوياً فحسب، وإنما يعدُّ وظيفة من وظائف اللغة".⁽¹⁾

لكن إستراتيجية التوجيه في خطابات الرسول ﷺ إلى الناس على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم انبنت على قواعد التعامل والتواصل معها، وهذا ما نقلته كتب السيرة النبوية ومصنفات الحديث، وكيف لا وقد وصفه القرآن بأعظم وصف، قال الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: 4).

وتتجلى هذه القواعد من خلال أوامر الرسول ونواهيه واستفهاماته كما نقلها لنا القرآن الكريم، وقد شكّلت أبرز وسائل الإستراتيجية التوجيهية. ولهذا فالسؤال الجدير بالطرح في هذا المقام: أكانت هذه الوسائل هي نفسها مع جميع المخاطبين ممّن توجه إليهم ﷺ بخطاباته؟ أم أنّ وجه الاختلاف يبرز من خلال القوى الإنجازية المستلزمة؟ ثم هل حقق الفعل الاستراتيجي عن طريق التوجيه أهدافه ومقاصده؟ وما علاقة ذلك بسلطة المخاطب إن كانت للرسول ﷺ سلطة ما؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه من خلال هذا المقال.

تعريف الإستراتيجية التوجيهية:

حيثما وجد الارتكاز على الإستراتيجية التضامنية قليلاً أو ضعيفاً كان ذلك إما بسبب عدم الاكتراث بالعلاقة التخاطبية وقد وجدت، وإما لعدم الاكتراث بتأسيسها، وعليه يأتي التلفظ وفق ما تقضيه إحدى الاستراتيجيات الأخرى، وهي الإستراتيجية التوجيهية. من هذا المنطلق ندرك أنّ المرسل يتعامل في خطابه مع المرسل إليه وفق معيارين اجتماعيين هما:⁽²⁾

- إما معيار تقريب المرسل إليه والتقرب منه.

-أو عدم الاكتراث بذلك في خطابه.

فالمعيار الأول يجسد إستراتيجية التضامن، بينما يجسد المعيار الآخر إستراتيجية التوجيه. نفهم من هذا أن الإستراتيجية التوجيهية هي مجموع الخطط أو السبل التي يتبعها المخاطب من أجل تبليغ قصده، وتوجيه المخاطب إلى الأخذ به، دون مراعاة للعلاقات التخاطبية، ودون حرص على بقائها أو انقطاعها، إذ يشكل تبليغ الرسالة الهدف الأسمى.

ولاشك أن "هناك سياقات لا تناسبها الخطابات المرنة التي تمنح الأولوية لمبدأ التهذيب، وعوامل التخلق، ومرد ذلك إلى أسباب كثيرة، منها ما يتعلق بأولوية التوجيه على التأدب في خطابات النصيح والتحذير وغيرها، فالمرسل يولي عنايته فيها لتبليغ قصده، بإغفال جانب التأدب التعامل في الخطاب."⁽³⁾

ولهذا عدت الإستراتيجية التوجيهية طريقة إكراه وتدخل في حرية المخاطب، خاصة إذا كان فعل التوجيه مدعماً بسلطة المخاطب، بينما في حال تساوي العلاقات التخاطبية فقد يصبح فعل التوجيه، مثار سخرية واستهزاء.

ولعل من دواعي استعمال هذه الإستراتيجية إعادة هيبه العلاقة بين المخاطب والمخاطب، بل تأكيد حضورها في الذهن وعدم إغفالها، لاسيما إذا كان التعامل في السابق بحسب الإستراتيجية التضامنية⁽⁴⁾، وذلك لأن صيغ التهذيب والتودد قد تقلل من هيبه المخاطب أو شأنه، ولا سبيل لاسترجاع هذه الهيبه إلا باستعمال السلطة، وبالتالي تقديم التوجيهات.

ويبرز التوجيه إستراتيجية تخاطبية عند العرب القدامى من خلال الدراسات النحوية والصرفية والبلاغية والفقهية. لكن ذلك البروز لم يكن بهذا المفهوم الذي شاع في اللسانيات التداولية، وفي مناهج تحليل الخطاب. فقد انصب اهتمام النحاة العرب غالباً على أحكام الإعراب وتركيب الخطاب، وكذا تصنيف الأفعال. أمّا البلاغيون فقد منحوها الاهتمام في علم المعاني، إذ قسموها إلى خبرية وطلبية، بينما وضع علماء الفقه لهذه الإستراتيجية حدوداً وشروطاً، وذلك من أجل إدراك الأحكام الشرعية ودرجتها في سلم الأحكام⁽⁵⁾. بينما سلكت الإستراتيجية التوجيهية في الدراسات الغربية المعاصرة سبيلين رئيسيين في معالجة إنتاج الخطاب عموماً وهما:

-الاتجاه الأول: ويهتم بالدراسات التي تحضّ على التأدب ويمثله كل من: ليتش "و" رويين لاكوف " وإلى حد ما "براون وليفنسون".

-الاتجاه الآخر: وهي الدراسات التي بينت كيفية التلفظ وفق التوجيه، فعرضت آلياتها وأدواتها ويمثله "بول غرايس" و"جون سيرل"⁽⁶⁾

الوسائل اللغوية في الإستراتيجية التوجيهية: تتنوع الوسائل اللغوية في الإستراتيجية التوجيهية فضلا عن تعدد الدلالات في الوسيلة الواحدة، وفقا لمقتضيات السياق، والاستعمال التداولي التي ترد فيه. ومن هذه الوسائل "الأمر، والنهي، والاستفهام، والتحذير عن طريق ألفاظ المعجم كالوصية والتوسل أو المناشدة"⁽⁷⁾. فالأمر هو "إنشاء طلب، وهو طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء مع الإلزام (...). وقد يخرج عن معناه الأصلي إلى معان أخرى تستفاد من سياق الكلام، وقرائن الأحوال مثل: الدعاء، والالتماس، والإرشاد، والتهديد، والتعجيز..."⁽⁸⁾ ومن أمثلة ذلك في الخطاب القرآني قوله تعالى: يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ (مريم: 12)، وهو أمر على وجه الحقيقة. أما ما خرج إلى معان أخرى، فمثال ذلك قوله تعالى: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ (البقرة: 23) وذلك لغرض التعجيز. ومن شواهد الأمر في الشعر الجاهلي قول "امرئ القيس":

فَقَا نَبِكُ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمِلِ

وفي الشعر العربي قول أبي الطيب المتنبي:⁽⁹⁾

أَزَلَّ حَسَدًا لِحَسَادِ عَنِّي بِكَبْتِهِمْ
فَأَنْتَ الَّذِي صَبَّرْتَهُمْ لِي حُسَدَا
وَدَعَّ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنِّي
أَنَا الطَّائِرُ الْمُخَكِّي وَالْآخِرُ الصَّدَى

والنهي هو "طلب الكف عن الشيء، على وجه الاستعلاء مع الإلزام، وله حرف واحد هو "لا" الجازم في قولك: لا تفعل"⁽¹⁰⁾. ومن شواهد التوجيه عن طريق النهي في القرآن الكريم قوله تعالى: وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا ۖ قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ (البقرة: 25). ومن الشعر قول زهير بن أبي سلمى:⁽¹¹⁾

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ
لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمَ اللَّهُ يُعْلَمَ

أما الاستفهام فهو "طلب الفهم، أي طلب العلم بشيء لم يكن معلوما، بواسطة أداة من أدواته، وهي: الهمزة، هل، من، ما، متى، أين، أيان، أنى، كيف، كم، وأي"⁽¹²⁾.

ومن أمثلة الاستفهام في القرآن الكريم قوله تعالى بغرض الأمر: **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** ﴿٩١﴾ (المائدة: 91) وبغرض الإنكار قوله تعالى: **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴿٤٠﴾ (الأنعام: 40).

أما شواهد ذلك في الشعر العربي قول طرفة بن العبد: (13)

أَلَا أَيُّهَا اللَّائِيُّ أَحْضِرِ الْوَعَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخَلِّدِي
وقول "عنتر بن شداد": (14)

هَلْ غَادَرَ الشَّعْرَاءَ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ
يَا دَارَ عِبَلَةَ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّبِي وَعَيْبِي صَبَّاحَا دَارَ عِبَلَةَ وَاسْلَمِي

ومن الشعر المعاصر قول الشاعر "عبد الله عيسى لحيلح":

مَا دَارَ عِبَلَةَ مَا الْجَوَاءُ وَهَاهُنَا وَطَنْ يُجَوِّزُهُ الْوُقُوفُ كَأَرْسَمٍ (15)
مَا عِبَلَةَ لَوَزَانَهَا نُورُ الْهُدَى إِلَّا حَرَائِرُ مَوْطِنِي فِي مَوْسِمٍ (16)

ومن الوسائل اللغوية في الإستراتيجية التوجيهية أيضا التحذير والإغراء، فالتحذير هو تنبيه المخاطب إلى أمر مكروه ليتجنبه أو يتركه (...) ويأتي المحذر منه مفردا منصوبا، أو معطوفا عليه، أو يأتي بلفظ إياك وفروعه. (17)

أما الإغراء فهو "نصب الاسم بفعل محذوف للترغيب والتشويق يقدر بما يناسب المقام، وفائدته تنبيه المخاطب على أمر محمود ليفعله". (18) وقد ورد أسلوب التحذير في قوله تعالى: **فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا** ﴿١٣﴾ (الشمس: 13)، فناقة الله منصوب على التحذير، أي ذروا عقرها، واحذروا سقياها. ويأتي العرض أيضا وسيلة من وسائل التوجيه وهو "طلب حصول شيء برفق ولين". (19)

أما التحضيض فهو "طلب حصول الشيء بحثا واهتمام أكبر، وحروف العرض والتحضيض والتوبيخ هي: ألا، هلا، لوما، لولا". (20)

وقد يلجأ المخاطب في الإستراتيجية التوجيهية إلى ذكر العواقب، وهي آلية مباشرة، يستعملها المرسل لتوجيه المرسل إليه وفق ما يريده، كالتوجيه بذكر ما تصير إليه الأمور من عواقب حسنة، أو سيئة" (21)

ومن أمثلة ذكر العواقب في القرآن الكريم ما جاء على لسان سيدنا صالح (عليه السلام)، قال الله تعالى:.... وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ (الأعراف:73)

ومن الشعر العربي ما جاء لبيان العواقب قول زهير بن أبي سلمى: (22)

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنِيَا يَتَلَنَّهُ
وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلَمٍ

تجلي إستراتيجية التوجيه من خلال نظرية أفعال الكلام:

1- عن طريق الاستفهام:

لاشك أن تحليل الآيات القرآنية التي جاءت مبدوءة بفعل الأمر "قل" وهو الأمر الموجه للرسول ﷺ سيقف على حقيقة واضحة، وهي كثرة ما جاء بعد هذا الفعل بصيغة الاستفهام وهو في الدراسات التداولية فعل إنجازي لتحقيق عدة أشياء تتحدد من خلال طبقات مقامية مختلفة. وعليه فالاستفهام وما ينطوي عليه من قوى إنجازية قد شكّل ركيزة أساسية في إستراتيجية التوجيه عند الرسول الكريم. ويتضح ذلك من خلال الجداول الآتية على سبيل المثال لا الحصر:

أ - الاستفهام في توجيه أهل الكتاب:

الاستفهام (قوة حرفية)	المحتويات القضية	القوى الإنجازية المستلزمة
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ - (آل عمران: 98).	- أمر الله لرسوله بالصدع والإنكار على أهل الكتاب لأنهم كفروا بآيات الله (القرآن- النبوة)	- استفهام إنكاري
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ (آل عمران: 99).	وهم يعلمون الحق، وتمادوا بصد المؤمنين عن ذلك	- إنكار وتوبيخ

<p>-استفهام تقييري -وفيه إنكار وتوبيخ -توجيه اليهود إلى الاعتراف بأصدق الأمرين²³</p>	<p>-الله لا يخلف وعده إن كان اليهود اتخذوا عنده عهدا على أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات</p>	<p>وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ (البقرة:80)</p>
<p>-التعجب -الإقرار</p>	<p>-بيان أحوال اليهود (الأسلاف) وعاداتهم في قتل أنبياء الله</p>	<p>وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ (البقرة: 91).</p>
<p>-استفهام تقييري</p>	<p>-لقد أعلمنا الله بأن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا</p>	<p>أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ (البقرة: 140).</p>

(الجدول رقم 1)

ب - الاستفهام في توجيه كفار قريش:

القوى الإنجازية المستلزمة	المحتويات القضيوية	الاستفهام (قوة حرفية)
<p>-استفهام تقييري</p>	<p>-إثبات توحيد الله بالإلهية ببيان سبيل الرزق وموهبة</p>	<p>قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ</p>

-استفهام إنكاري	الحواس ومعجزة التوالد الذي به بقاء الأنواع. وكذلك بيان تدبير الله لكل ما في الكون وتقدير الأمور وفق علمه وحكمته.	الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ (يونس: 31).
-استفهام للسخرية -استفهام تقريري -استفهام تعجبي	-نفي الألوهية عن الشركاء وإثبات الهداية والكمال لله تعالى، فالذي يهدي إلى الحق أحق أن يتبع.	قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾. يونس: 35)
-استفهام تقريري -استفهام إنكاري -استفهام تقريري -استفهام إنكاري	-الله تعالى يلحق رسوله أن يقرر هذه الحقائق لكفار قريش. وهي: لا يوجد غير الله يأتي بضياء النهار وسكون الليل. وهو استدلال بآيات كونية تتكرر في تضاد ويدركه كل عاقل ومميز.	قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ (القصص: 71-72).

(الجدول رقم 2)

تحليل المحتويات القضوية في الاستفهام الموجه إلى أهل الكتاب:

جاء هذا الخطاب في سياق معركة أهل الكتاب مع الجماعة المسلمة، وهو خطاب ينطوي على الكثير من الجدال كما نقلته لنا سورة آل عمران. وفي هذين الآيتين يبرز إلى جانب الجدال إستراتيجية الرسول ﷺ في توجيه أهل الكتاب وموعظتهم "وقد أحالهم على ما في ضمائرهم مما لا يعلمه إلا الله لأن ذلك هو المقصود من وخز قلوبهم وانثنائهم باللائمة على أنفسهم".⁽²⁴⁾

وعليه فقد حمل استفهامه ﷺ "لم تكفرون بآيات الله" قوى إنجازية مستلزمة تمثلت في إنكار كفرهم وجحوده وهم يعلمون الحق، بينما انطوى الاستفهام الآخر {قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله} "على إنكار وتوبيخ بعدما أنكر عليهم ضلالهم في نفوسهم".⁽²⁵⁾ وأردف هذا الاستفهام بفعل كلامي يحمل الكثير من الوعيد والتهديد. قال الله تعالى: يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هٰٓؤُلَآءَ سُبُلَهُمْ لِيُبْذَرُوا فِي سُبُلِهِمْ أَسْمَانًا (آل عمران: 99).

وعليه تتكشف الإستراتيجية التوجيهية للرسول الكريم في هذا الخطاب من خلال النداء "يا أهل الكتاب" وهو فعل كلامي أنجز به ﷺ الكثير من المواعظ، منها أنّ النداء بهذا الوصف دون وصف آخر فيه الكثير من التذكير إن كانوا قد نسوا كتبهم، وفيه الكثير من التنبيه إن كانوا قد غفلوا عن تعاليمهم وعقائدهم، وما دعا إليه موسى (عليه السلام) وما دعا إليه عيسى (عليه السلام) من توحيد الألوهية. إنه المنهج الرباني الذي يسعى النبي الأمي "الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم" إلى تبليغه. فلم يأتِ النداء في هذا السياق بـ يا أيها الذين هادوا، أو بـ "يا أيها النصارى"، تماشياً مع مقاصده ﷺ لعلّ في ذلك استفاقة ممّا هم فيه من ضلال، ولعلّ الله يقذف في قلوبهم رؤية الحق، فيتبدّل بها حسدُهم رحمة، وكرهُهم محبة، وكيدُهم سلاماً ونصرة.

وفي سورة البقرة تتجلى الإستراتيجية التوجيهية من خلال المحتويات القضية في الآية (80) و(91) (140) - كما هي في الجدول- ففي قوله تعالى: **وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾** (البقرة: 80). فالاستفهام باعتباره قوة حرفية يحمل في هذا المقام قوى إنجازية مستلزمة، لعلّ أهمها: التقرير الدال على أن الله لا يخلف عهده، وهو تقرير يخفي الكثير من الإنكار والتوبيخ لأن "من تلك الأماني التي لا تستقيم على عدل الله، ولا تتفق مع سنته، ولا تتماشى مع التصور الصحيح للعمل والجزاء، أن يحسبوا أنهم ناجون من العذاب مهما فعلوا، وأنّ النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات".⁽²⁶⁾ كما ينطوي هذا الفعل الكلامي "قل اتخذتم عند الله عهداً" على قوة إنجازية تفيد التوجيه إلى حقيقة واحدة لا ثاني لها وهي: "إمّا أنكم أيها اليهود صادقون والله لا يخلف عهده، ولن تعذبوا إلا أياماً معدودات، أو أنكم مفترون وتقولون على الله ما لا تعلمون.

إنّ الرسول ﷺ بهذا الاستفهام يوجه اليهود إلى الحق بطريقته التي لا تخلو من الحجة الدامغة، مما يجعلهم يسلمون بالأمر الواقع ويدعونون للحق. وهكذا تتعالق الإستراتيجية التوجيهية مع إستراتيجية الحجاج والإقناع من أجل هدف واحد وهو إحداث التغيير في سلوك الآخر بالتأثير فيه من منطلق الحجة القوية والدليل الصادق، وكيف لا وقد لقّن الله رسوله أن "يفند حججهم ويكشف زيف ادعاءاتهم، ويردّ عليهم كيدهم بالحق الواضح الصريح".⁽²⁷⁾

يوجّه الرسول ﷺ اليهود إلى الحق عن طريق ما ينطوي عليه الاستفهام من قوة التعجب وتقرير الحقائق، ومصدر التعجب أن هؤلاء أعرضوا عن القرآن وعن الوحي، وكذبوا نبوة محمد رسولا للعالمين، وتحجّجوا في غياب وسُخف أنهم لن يؤمنوا إلا بما أنزل عليهم.

لقد تناسى هؤلاء ما فعلوه بأنبياء الله وأنبيائهم، وما هو القرآن المعجزة يخرس أقوالهم ويكشف تاريخهم. وإستراتيجية الرسول ﷺ مع اليهود في هذا السياق تبرز من خلال كشفه للحق من حيث أرادوا ستره، وفي هذا الكشف دليل على صدق الرسول، وصدق ما جاء به، فالله تعالى أعلمه بقصص الأولين والآخرين تسلية وعزاء وعبرة.

وهكذا يمضي السياق في هذه المواجهة وهذا الكشف وهذا التوجيه، ومن شأن هذه الخطة أن تضعف أو تبطل كيد اليهود في وسط الصّف المسلم، وأن تكشف دسائسهم".⁽²⁸⁾

- تحليل شروط الملاءمة**

- مدى تحقق شرط المحتوى القضوي:

لقد تحاور الرسول ﷺ مع اليهود بشأن قضايا مختلفة لعلّ أهمها قضية العقيدة حيث أشركوا مع الله آلهة، وأعرضوا عن الوحي والقرآن، وكذبوا بمحمد خاتما للنبيين، كما جادلهم بشأن مقالتهم أنهم على دين إبراهيم (عليه السلام)، وأنّ النار لن تمسه إلا أياما معدودات. وعليه فقد تمّ توجيههم إلى الصواب بتصحيح ما هم عليه من فساد العقيدة، والتهجم على الذات الإلهية وسوء الأدب مع الرسول والنيل من القرآن العظيم، ودعم حزب المنافقين والتأمر معهم".⁽²⁹⁾

ورغم تنوع سبل التوجيه من إقرار للحقائق، واستنكار للأفعال وتعجب منها، وتوبيخ عليها، إلا أن هذا الشرط الذي يتعلق بـ "توجيه المخاطب إلى فعل شيء في المستقبل"⁽³⁰⁾ لم يتحقق لكن الذي تحقق أن الرسول ﷺ استطاع أن يجعل العالم مطابقا لكلمات لربّه من خلال تصديه لمخططات أهل الكتاب وخاصة اليهود منهم ومثال ذلك "ما حدث لليهود بني قينقاع حيث ضرب الرسول ﷺ عليهم الحصار خمس عشرة ليلة إلى أن قذف الله في قلوبهم الرعب واضطروا للنزول إلى حكمه ﷺ بعدما كانوا يهددونه ويهددون أمن المسلمين".⁽³¹⁾

-مدى تحقق الشرط التمهيدي

يتعلق هذا الشرط في التوجيهيات بقدره المخاطب أو المستمع على تأدية الفعل الموجه إليه، ولا شك أن المخاطبين في هذه الآيات وهم "أهل الكتاب" كانوا قادرين على إنجاز ما وجههم إليه الرسول ﷺ لكنهم لم ينجزوا ذلك، وهي عادة أسلافهم.

- مدى تحقق شرط الإخلاص

يرتبط هذا الشرط بالمخاطب أو المرسل، والمخاطب في هذا المقام هو الرسول ﷺ وهو من أولي العزم من الرسل ممن اتصفوا بشدة العزم والصبر والإخلاص، وعليه يكون هذا الشرط من أعظم شروط الملاءمة تحققاً.

-الشرط الأساسي:

يتعلق هذا الشرط بمحاولة المخاطب التأثير في المخاطب لإنجاز الفعل، وهو شرط متحقق من جانب الرسول الكريم لما بذله من أساليب واستراتيجيات. أما فيما يتعلق بأهل الكتاب فإن التأثير فيهم وإن كان واقعاً لا محال، فإن طبيعتهم كما طبعوا عليها هي إظهار عكس ما يبطنونه من الخبث بالدعوة والكره لقائدها والمكر بالمسلمين جميعاً.

-تحليل المحتويات القضية في الاستفهام الموجه إلى كفار قريش.

لقد تضمنت استفهامات الرسول الكريم لكفار قريش تقريراً لحقائق تتعلق بإثبات وحدانية الله ومعجزاته في التوالد وبقاء الأنواع وموهبة السمع والبصر وقدرته على تدبير الأكوان، ولهذا أردف هذا التقرير بقوة إنجازية مستلزمة وهي الإنكار في قوله: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾** (يونس: 31).

إن الاستفهام باعتباره فعلاً كلامياً قد انطوى على قوى إنجازية حرفية وقوى إنجازية ضمنية لعل في ذلك درساً لكفار قريش ممن أنكروا وعاندوا "وهذا الدرس كله لمسات وجدانية متتابعة تنتهي كلها إلى هدف واحد: مواجهة الفطرة البشرية بدلائل توحيد الله وصدق الرسول واليقين باليوم الآخر والعدل فيه".⁽³²⁾

إن إستراتيجية الرسول ﷺ باتخاذ الاستفهام وسيلة لغوية مع كفار قريش هي خطة لبث خطاب مدروس " من أجل أن يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم ليصحح لهم عن طريق إيقاظ وعيهم وتدبرهم-ذلك الخلط والضلال".⁽³³⁾ كما أن مقصدية الخطاب في هذا المقام تهدف إلى وضع الكفار المعاندين أمام الحقائق التي يعترفون بها في قرارة أنفسهم، لكن عنادهم يجزهم إلى الكفر والشرك.

وفي الآية (35) من سورة يونس-ينظر الجدول- يهدف الرسول الكريم إلى إنجاز أشياء كثيرة عن طريق الاستفهام، ومنها السخرية من شركائهم في قوله: **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ**

تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ يونس: (35). وهذه السخرية يقابلها تقرير حقيقة لا مرد لها قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ - (يونس: 35). وتختتم هذه الآية باستفهام آخر تتمثل قوته الإنجازية في إظهار التعجب والتوبيخ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ (يونس: 35).

وفي هذا الاستفهام الذي ورد في هذين الآيتين من سورة يونس يقول الشيخ ابن عاشور: "وجاء الاستدلال بطريقة الاستفهام والجواب لأن ذلك في صورة الحوار فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين".⁽³⁴⁾ وعليه فإستراتيجية الرسول ﷺ في استخدام الاستفهام وسيلة هي إستراتيجية مدروسة لإحداث التأثير في نفوس هؤلاء المعاندين.

وتبرز الإستراتيجية التوجيهية في الآيتين (71) و(72) من سورة القصص-ينظر الجدول- من خلال تلك المحتويات القضائية التي تتعلق بإقرار حقائق مما يحسه هؤلاء الكفار في واقعهم، وهي حقائق تتعلق بقدرة الله وحده على الإتيان بضياء النهار وسكون الليل. قال الله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ (القصص: 71) وينطوي هذا الاستفهام على قوتين إنجازيتين مسلتزمتين وهما الإنكار والتوبيخ.

لقد اختار الرسول الكريم أن يوجّه هؤلاء الكفار إلى الحق عن طريق إقرار الحقائق، وهو إقرار مثقل بشحنات الاستنكار والتوبيخ. وللوقوف على مدى نجاح هذا الفعل الاستراتيجي المقصود لا بأس من تحليل شروط الملاءمة.

تحليل شروط الملاءمة:

لقد تحقق شرط المحتوى القضوي من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه قام بتوجيه كفار قريش إلى القضايا التي كانت محور النقاش والمجادلة، لكن هذا التوجيه لم يحقق نتائج أنية، بل امتدت النتائج إلى مراحل أخرى من مراحل الدعوة، حينما بشر الله رسوله والمسلمين معه بالنصر، قال الله تعالى: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ (النصر: 1-3). وقد جاء في أسباب النزول للواحدى أن هذه السورة نزلت عقب غزوة حنين.⁽³⁵⁾

بينما جاء في أسباب النزول للسيوطي أنها نزلت " لما دخل الرسول مكة عام الفتح وبعث بخالد بن الوليد فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة حتى هزمهم الله ثم أمر بالسلاح فرفع عنهم فدخلوا في الدين فأنزل الله قوله: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ سورة النصر).⁽³⁶⁾

أما بالنسبة لشرط المحتوى التمهيدي، فهو شرط لم يتلاءم مع فعل التوجيه لما عرف عن كفار قريش من العناد والمكابرة والتعنّت، فقد واجهوا الرسول ﷺ بجمل الأساليب رغبة منهم في القضاء على الدعوة والقضاء على قائدها فقد "أغروا برسول الله ﷺ نساءهم فكذبوه وأذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون".⁽³⁷⁾ ولتلك الأسباب لم تتحقق بقية شروط الملاءمة.

2- عن طريق أسلوب الأمر والنهي

يعدُّ أسلوب الأمر والنهي من أكثر الأساليب التي تنبني عليها الإستراتيجية التوجيهية لاسيما إذا كانا مدعمين بسلطة المخاطب أو يرتبطان مباشرة بمنفعة المخاطب.

وعليه يتجلى حضور هذين الأسلوبين في خطاب الرسول ﷺ إلى المشركين من كفار قريش ومن غيرهم، كما اعتمد عليهما في خطاب أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكذلك في خطاب الذين آمنوا من قومه.

وسأركز في هذا المطلب على خطاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المؤمنين من قومه، وإلى المؤمنين في كل زمان ومكان، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

القوى الإنجازية المستلزمة	المحتويات القضية	الأمر والنهي "القوة الحرفية"
-النصح والتوجيه والإرشاد	-توجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) للمؤمنين إلى الإستزادة في الصلاة والإنفاق قبل حلول يوم الجزاء	قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴿٣١﴾ (إبراهيم: 31)

<p>-توجيه المؤمنين ونصحهم</p>	<p>-الأمر بتقوى الله استزادة وتثبيتا، وبيان ثواب الإحسان والصبر</p>	<p>قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ (الزمر: 10)</p>
<p>-توجيه المؤمنين والتشريع لحياتهم</p>	<p>-سؤال المؤمنين حول المحيض وحكم المعاشرة فيه، وأمر الرسول باعتزال النساء فيه</p>	<p>وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ (البقرة: 222)</p>
<p>-توجيه الأمة إلى الآداب وتشريع بعض الأحكام المتعلقة بلباس المرأة المسلمة</p>	<p>-أمر الرسول للمؤمنين والمؤمنات بالتأدب من خلال غض البصر وحفظ الفرج</p>	<p>قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنَ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ (النور: 30-31)</p>

-تأديب الأمة وتحذيرها من نزغ الشيطان	-الأمر بالقول الحسن وبيان عداوة الشيطان	وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ (الإسراء: 53)
---	--	--

(الجدول رقم 3)

تحليل المحتويات القضية في أوامر الرسول ونواهي:

أشار "جورج يول" في كتابه "التداولية إلى فائدة تحليل أفعال الكلام، ويرى أنها "تكمّن في توضيح أصناف الأشياء التي نستطيع القيام بها عبر الكلمات، وتحديد بعض أشكال اللفظ العرفية التي نستعملها لإنجاز أفعال معينة".⁽³⁸⁾

من هذا المنطلق لاحظ "غرايس" أن جمل اللغات الطبيعية يمكن في بعض المقامات أن تدل على معنى غير المعنى الذي يُوحى به محتواها القضوي أو معناها الحرفي"⁽³⁹⁾ وهذا الأمر دفعه إلى وضع مجموعة من القواعد يحكمها مبدأ عام وهو مبدأ التعاون - كما سماه-

على هذا الأساس يمكن أن نحلل المحتويات القضية التي تضمنتها أوامر الرسول ﷺ ونواهي، من خلال ما تنطوي عليه من معانٍ حرفية مباشرة ومعانٍ سياقية غير مباشرة، وإذا كانت المعاني المباشرة معاني عرفية مباشرة واضحة فإن المعاني غير المباشرة لا يتم تأويلها إلا في إطار السياق وما يتطلبه من إدراك للمقاصد لأن "وراء كل نص إرادة إنسانية واعية، وغايات مقصودة، وليس ظاهر النص كباطنه".⁽⁴⁰⁾

أمّا إذا كان هذا النص ذا مصدر إلهي فإن وراءه إرادة إلهية ومنهجاً ربانياً له غايات ومقاصد، وهذه الغايات والمقاصد هي إلزام ألقى الله بها رسله لإنجازها في الواقع. إن هذا الكلام يجعلنا نسلم بأن توجيهات الرسول ﷺ هي توجيهات على وجه الإلزام لأنها أوامر ونواهي من الله تعالى إلى عباده.

وعليه فالمحتويات القضية في الآية (31) من سورة إبراهيم (ينظر الجدول) تتعلق بأمر الله لرسوله أن يتوجه في الخطاب إلى عباده الذين آمنوا ليقوموا الصلاة وينفقوا. ورغم الجزم بأن هذا الأمر حقيقي لأنه ورد على سبيل الاستعلاء فإن ما بلغه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المؤمنين يحمل قوى إنجازية ضمنية تفسرها قرائن الأحوال وهي النصيح والإرشاد، رغبة في استزادة المؤمنين من الصلاة والإنفاق، وفي هذا إستراتيجية توجيهية من الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتثبيتهم على

الإيمان وترغيبهم في العمل الصالح، خاصة وأن هذا الخطاب جاء معطوفا على غرض مضاد: قال الله تعالى: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُونَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ (إبراهيم: 28-30).

وهذا المقام يكشف عن غرض آخر لعله التحذير: تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ (إبراهيم: 25). و"لما ابتدئ بالفريق الأول لقصد الموعدة ثني بالفريق الثاني على طريقة الاعتراض".⁽⁴¹⁾ ويبرز فعل التوجيه في هذه الآية من خلال الاختيار التداولي للفعلين المضارعين "يقيموا وينفقوا" وهما صيغتان تدلان على التجدد والاستمرار بعكس صيغة الأمر "أقيموا وأنفقوا" التي تدل على الحاضر دون المستقبل، كما يشير "ابن عاشور" إلى أن زيادة "مما رزقناهم" تدلّ على التذكير بالنعمة وذلك تحريضا على الإنفاق.⁽⁴²⁾

أما المحتويات القضائية في الآية (10) من سورة الزمر فقد تعلقت بأمر الله تعالى لرسوله أن يتوجه بأمر للذين آمنوا من عباد الله ليتقوه ويحسنوا ويصبروا ولهم الأجر والثواب. وتبرز المعاني الضمنية في الفعل الاستراتيجي التوجيهي في دلالته على الترغيب، ويضيف "ابن عاشور" أن العبارة "وأرض الله واسعة" فيها عدول عن التصريح إلى الكناية، حيث كانت الإشارة "بلطف وتأنيس لما في مفارقة الأوطان من الغم على النفس".⁽⁴³⁾

كما كان في تذييل الكلام السابق — "إنما يوفى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ" إستراتيجية توجيهية تنطوي على تعظيم أجر الصابرين بعد التلميح لهم بالهجرة فرارا بدينهم من الأذى والفتن. أما ما جاء في سورة البقرة (222) فقد تعلق بسؤال المؤمنين عن الحلال والحرام في شريعتهم الجديدة، حول الحيض وحكم المعاشرة فيه. وجاء الأمر والنهي في الآيتين (31) و(32) لتأديب المؤمنين وتعليمهم شريعة الله حول غض البصر وحفظ الفرج واللباس الشرعي للمرأة المسلمة. وفي الآية (53) تعلق المحتوى القضوي بأمر الله لرسوله أن يعلم عباده القول الحسن تجنبا لهزات الشيطان الذي يسعى إلى بث العداوة.

أما ما تنطوي عليها هذه المحتويات القضية فجلبها إستراتيجية توجيهية تحمل قوى إنجازية متنوعة منها توجيه الأمة إلى التأدب بما يحفظ تماسكها، وتحذيرها من عداوة الشيطان وكذلك تشريع بعض الأحكام المتعلقة بالاستئذان وباللباس الشرعي للمرأة في الإسلام.

- تحليل شروط الملاءمة ومدى نجاح فعل التوجيه بالأمر والنهي:

لعلّ تحليل شروط الملاءمة لفعل التوجيه مع عباد الله الذين آمنوا يختلف تماما عمّا وقفنا عليه عند تحليل شروط الملاءمة لفعل التوجيه مع المشركين.

- شرط المحتوى القضوي:

إذا كان التلقظ نشاطا لغويا والإنجاز شكل من أشكال السلوك الإنساني، فإنّ شرط المحتوى القضوي قد تحقق بمجرد تلفظ الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما كان يُوحى إليه، أما الإنجاز فقد تجسّد بتهافت الصحابة على تعلم أحكام الدين الجديد، وتساؤلهم عن شرائعه. وعليه فإنّ المحتوى القضوي في هذا المقام من مقامات الأمر والنهي هو جزء من الرسالة المحمدية.

- الشرط التمهيدي:

إنّ ارتباط هذا الشرط بالمخاطبين وهم المؤمنون يجعلنا نجزم بتحقيقه ولو نسبيا لأن الله تعالى قد أثنى على عباده

المؤمنين الذين استجابوا لأمره، قال الله تعالى: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ (الشورى: 38).

- شرط الإخلاص:

لقد استجاب الرسول الكريم لأمره منذ أن جاءه الوحي بذلك الأمر. قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَتَسَابِكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ (المدثر: 1-4). فأخلص أيما إخلاص وجاهد أيما جهاد خاصة بعدما جاءه الأمر الإلهي بالصّدع، قال الله تعالى: فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ (الحجر: 94)

- الشرط الأساسي:

لقد تحقق هذا الشرط أيضا من جانب المخاطب والمخاطب معاً، فالرسول ﷺ كان يسعى إلى التأثير فيمن حوله لتغيير السلوك وتغيير الأمة وإعدادها. فأنعم الله عليه بأن فضّله على العالمين

وفضّل أمته قال الله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾. (آل عمران : 110)

الخاتمة:

لعل أهم ما تم رصده من نتائج في نهاية هذا البحث مايلي:

- ✓ لم تكن وسائل الإستراتيجية التوجيهية في خطاب الرسول الكريم هي نفسها مع جميع المخاطبين؛ فقد شكل الاستفهام الركيزة الأساسية في توجيه أهل الكتاب، وكفار قريش، حيث تنوعت القوى الإنجازية بين الإنكار والتقرير والتوبيخ والتعجب والسخرية.
- ✓ بينما ارتكز الخطاب الموجه إلى المؤمنين والمؤمنات على أسلوب الأمر والنهي، بغرض النصح والإرشاد والتوجيه، وكذا تعليم الأحكام الشرعية.
- ✓ ولاشك أن هذا الاختلاف يكشف عن طبيعة المخاطبين؛ إذ كان الإنكار والتوبيخ والتعجب هو الإستراتيجية الأنسب للكفار والمشركين، في حين كان النصح هو الأسلوب الأليق بالمؤمنين.
- ✓ وتبعاً لذلك تحققت شروط الملاءمة في الأفعال الكلامية الموجهة إلى المؤمنين والمؤمنات، بينما لم تتحقق تلك الشروط في الخطاب الموجه إلى غيرهم.
- ✓ وختاماً فإن الفعل الاستراتيجي عن طريق التوجيه قد حقق مقاصده وأغراضه، لأن الرسول الكريم استطاع أن يغير سلوك الأفراد لتغيير واقع الأمم.
- ✓ ولم يكن ذلك النجاح لما يمتلكه من سلطة سياسية أو اجتماعية، ولكن مرد ذلك ما تمتع به من سلطة روحية وأخلاقية أذعننت لها القلوب والعقول على السواء.

الهوامش:

(1) إدريس مقبول: الإستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية، مجلة كلية العلوم الإسلامية، مكناس، المغرب، مج3، ع15، 1435هـ-2014م، ص (549).

(2) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص114.

(3) المرجع نفسه، ص322.

(4) نفسه، ص328.

- (5) ينظر: نفسه، ص 337.
- (6) ينظر: نفسه، ص ن.
- (7) ينظر: نفسه، ص 340.
- (8) أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1431 هـ - 2010 م، صص 56-57.
- (9) مصطفى سبتي: شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421 هـ - 2000 م، ص 126.
- (10) أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403-1983 م ص 326.
- (11) أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني: شرح المعلقات السبع، دار الأفق، الجزائر، دط، دس، ص 57.
- (12) عبد السلام محمد هارون: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 2001 م، ص 18.
- (13) الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص 42.
- (14) المرجع نفسه، ص 96.
- (15) عبد الله عيسى لحيلج: سبع معلقات للجاهلية الأخيرة - ديوان شعري، دار الروائع للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2013 م، ص 29.
- (16) المرجع نفسه، ص 33.
- (17) ينظر: أحمد الخوص: قصة الإعراب، ج2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، دس، صص 192-193.
- (18) مصطفى الغلاييني: جامع الدروس العربية، مج3، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط36، 1419 هـ - 1999 م، ص 16.
- (19) إبراهيم قلاني: قصة الإعراب، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، دس، ص 335.
- (20) المرجع نفسه، ص 336.
- (21) عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 362.
- (22) الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص 62.
- (*) تعد نظرية أفعال الكلام النواة الأولى لللسانيات التداولية وتتلخص في «
- (24) محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج4، الدار التونسية، تونس، دط، دس، ص 27.
- (25) المرجع نفسه، ص 25.
- (26) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج1، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط32، 2003 م، ص 85.
- (27) المرجع نفسه، ص 83.

- (28) نفسه، ص 79.
- (29) ينظر: علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، مؤسسة زاد للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1433هـ-2012م، صص 280-282.
- (30) محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، جامعة الإسكندرية، مصر، دط، 2002م، ص 79.
- (31) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، ص 376.
- (32) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 3، ص 1778.
- (33) المرجع نفسه، مج 3، ص 1781.
- (34) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج 11، ص 155.
- (35) ينظر: الواحدي: أسباب النزول: دار الإصلاح، الدمام، السعودية، ط3، 1412هـ-1992م، ص 468.
- (36) ينظر: جلال الدين أبو عبد الرحمن السيوطي: رباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2002م، ص 311.
- (37) ابن هشام: السيرة النبوية، ج 1، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1410هـ-1990م، ص 319.
- (38) جورج يول: التداولية، تر: قصي العتاي، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص 96.
- (39) أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية - مدخل نظري - دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط2، 2010م، ص 26.
- (40) بهاء الدين محمد زيد: تبسيط التداولية، من أفعال الكلام إلى بلاغة الخطاب السياسي، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2010م، ص 96.
- (41) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج 13، ص 232.
- (42) المرجع نفسه، ص 232.
- (43) نفسه، ج 23، ص 355.
- بيبلوغرافيا البحث:**
- (1) إبراهيم قلاتي: قصة الإعراب، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، دس.
- (2) أحمد الخوص: قصة الإعراب، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، دس.
- (3) أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية - مدخل نظري - دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط2، 2010م.
- (4) أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدع، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ-2010م.
- (5) إدريس مقبول: الإستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية، مجلة كلية العلوم الإسلامية، مكناس، المغرب، مج 3، ع 15، 1435هـ-2014م.

- (6) بهاء الدين محمد زيد: تبسيط التداولية، من أفعال الكلام إلى بلاغة الخطاب السياسي، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2010م.
- (7) جورج يول: التداولية، تر: قصي العتاي، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.
- (8) الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين: شرح المعلقات السبع، دار الأفاق، الجزائر، دط، دس.
- (9) السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي: مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403-1983م.
- (10) سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط32، 2003م.
- (11) السيوطي، جلال الدين أبو عبد الرحمن: رباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2002م.
- (12) الشهري، عبد الهادي بن ظافر: استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
- (13) ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، دط، دس.
- (14) عبد السلام محمد هارون: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 2001م.
- (15) عبد الله عيسى لحيلج: سبع معلقات للجاهلية الأخيرة - ديوان شعري، دار الروائع للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2013م.
- (16) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، مؤسسة زاد للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1433هـ-2012م.
- (17) الغلاييني، مصطفى: جامع الدروس العربية، مج3، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط36، 1419هـ-1999م.
- (18) محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، جامعة الإسكندرية، مصر، دط، 2002م.
- (19) مصطفى سبيتي: شرح ديوان أبي الطيب المتنبّي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2000م.
- (20) ابن هشام: السيرة النبوية، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1410هـ-1990م.
- (21) الواحدي: أسباب النزول: دار الإصلاح، الدمام، السعودية، ط3، 1412هـ-1992م.